بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 40 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:09\02\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

وصل الكلام إلى الآية العشرين، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾.

في هذه الجولة الثالثة في آيات سورة لقمان، بداية لا بد أن نبحث عن الارتباط السياقي بين هذه الآية وبين ما تقدم من آيات في الجولتين السابقتين.

العلامة الطباطبائي رحمه الله يرى أن هذه الآية مرتبطة بآخر آية قبل الشروع في قصة لقمان عليه السلام فتكون قصة لقمان الحكيم عليه السلام بين تلك الآية وهذه الآية تكون بمثابة جملة اعتراضية، الجملة الاعتراضية يأتي بها المتكلم لغرض، وفيما نحن بغرض التنبيه على الحقيقة التي يراد إثباتها المرتبطة بالإيمان بالتوحيد والمعاد.

فآخر آية قبل قصة لقمان عليه السلام كانت عبارة عن قوله تعالى: ﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ المتكلم بهذه الآية المباركة هو النبي صلى الله عليه وآله ﴿فَأَرُونِي﴾ فيتكلم بصورة المخاطب مع المشركين. جاءت هذه الآية لتقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وهي بصورة مخاطب، فالمخاطب فيهما واحد، وهم مشركون.

فسياق هذه الجولة مع الجولة الأولى واضحة، كلاهما يرتبطان بعقيدة التوحيد، وجاءت قصة لقمان الحكيم عليه السلام كاعتراض بينهما، فبالتالي لا يوجد التفات؛ لأن الأسلوب لم يتغير؛ لأنه في الآية الأخيرة ﴿فَأَرُونِي﴾ يتكلم مع مخاطب مشرك، وفي هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ فلم يغير الأسلوب، لم ينتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر، بل يوجد أسلوب واحد، وهو أسلوب التخاطب.

بينما لو قلنا بأنه بين هذه الآية وبين الآية الأخيرة من الجولة الأولى لا يوجد هذا الترابط، وأن هذا الكلام الجديد هو كلام الله تبارك وتعالى، فحينئذ يتغير الأسلوب، فيكون هناك التفات؛ لأنه في تلك الآية الأخيرة ذيلت بقوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

وقالوا في علم البيان بأن الاسم الظاهر بمثابة الضمير الغائب، عندما تقول: "جاء الظالم" كأنك قلت: "جاء هو" اسم الظالم بمنزلة الضمير الغائب. فإذن الآية كانت تتكلم عن غائب، أما الآن ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ فالباري تبارك وتعالى هو المتكلم، خاطب هؤلاء الظالمين، كانت الحكاية عنهم على أساس غيبتهم، الآن صار الخطاب معهم، فتغير الأسلوب، فيوجد التفات. هذا هو تحقيق العلامة الطباطبائي رحمه الله في المسألة.

ثم بين أن نكتة الالتفات حينئذ إذا أرت أن تنصح شخصاً فعل فعلاً قبيحاً، ففي البداية تبدأ بالتدريج، لا توجه له الكلام بشكل مباشر، أن بعض الناس يفعلون هذا الفعل، وهذا الفعل قبيح. فإذا رأيته مصغياً فلا داعي بأن تفعل الخطاب وترفع الخطاب، وإذا رأيته معرضاً ومتمادياً فحينئذ توجه له بصورة مباشرة.

فيما نحن فيه كان الكلام عن غائب، فلما كانت تلك الدلائل لم تقنعهم، الآن تكلم معهم بشكل مباشر ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ﴾ هذه هي نكتة الالتفات.

هذا البيان الذي ذكره العلامة الطباطبائي رحمه الله فيما يرتبط بسياق هذه الآيات، لم يبرز لنا فيه أي دليل. عادة في الاعتراض، إذا كان الاعتراض طويلاً، لابد للمتكلم أن ينبه لطول هذا الاعتراض على كونه اعتراضاً، وإلا لطوله قد ينسى المخاطب هذا الترابط. بخلاف الاعتراض القصير يكون واضحاً من لحن الكلام، إذا أتينا بجملة اعتراضية مؤلفة من ثلاث أو أربع كلمات، هذه يفهمها كل متكلم، أن هذه جملة اعتراضية. أما عندما يأتي الاعتراض قصة، فلابد عندما تعود إلى الكلام الأول من وجود منبهات في الكلام الثاني تربطه بالكلام الأول.

ومجرد أن الحديث في الكلام الأول عن دلائل التوحيد والحديث في هذا الكلام الأخير عن دلائل التوحيد، لا يجعل ما يتوسط بينهما من باب الاعتراض. إذن لم يبرز لنا دليلاً على هذا المدعى.

والذي استقربه في الترابط السياقي، هو في الواقع سورة لقمان موضوعها الأساسي هو إثبات التوحيد، بمعظم آياتها وفقراتها ومقاطعها، واستعمل التنوع في الأساليب لإثبات هذه الفكرة الأصلية، وهي فكرة التوحيد.

ففي الآيات السابقة كان النبي ﷺ يبين لهم الدلائل، فذكر: ﴿خَلَقَ السَّماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ (10) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ كان النبي يبرز لهم الأدلة.

جاءت بعد ذلك قصة لقمان الحكيم عليه السلام ليبين أن هذه الأدلة التي يبرزها النبي ﷺ لكم ليس فقط من منطلق نبوته، وأنه وحي يوحى. أو إن شئت فقل إن القضية ليست مجرد قضية نقلية، فينبغي أن نأخذ بكلامه على نحو التسليم، كما هو الحال في القضايا النقلية؛ لأنه نبي، والنبي ينبئ عن الغيب بواسطة الوحي، فهذا لقن له، فعليكم أن تتبعوا.

جاءت قصة لقمان عليه السلام لتبرهن أن ما يذكره النبي ﷺ ليس مجرد نقل، وإنما هو من مقتضيات الحكمة، من مقتضيات العقل، من مقتضيات فطرة البشر. فدين التوحيد ليس مجرد دين تلقيني، وإنما هو دين فطري، دين يرتبط بحكمة الإنسان، بالحكمة النظرية والعملية. فلا تتوهم أني لكوني نبياً أبلغكم عقيدة التوحيد، بل انظروا إلى لقمان الحكيم عليه السلام الذي هو ليس بنبي، وإنما أوتي الحكمة، ينطلق من منطلق عقله القويم السليم.

هذا الذي انطلق من منطلق عقله القويم السليم في بداية وصيته لابنه قال له: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾.

جاءت الجولة الثالثة أيضاً في سياق عقيدة التوحيد، لكن مع تفاوت. في الجولة الأولى عقيدة التوحيد تنطلق من العظمة الذاتية للخالق، فعبادة الواحد الأحد من منطلق ذاته؛ لأنه يستحق العبودية؛ لأنه رفع السماء، وخلق السماء بغير عمد ترونها، هذا إعجاز. في هذه الصفحة الثالثة والمقلب الثالث والجولة

الثالثة ركز على عقيدة التوحيد من منطلق أن هذا الخالق منعم، والمنعم يستحق أن توحده، لذا هذه الآية التي نبحث عنها: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ﴾ أي: لصالحكم ولنفعكم، فهو منعم عليكم.

فإذن في المقلب الأول وحدوه واعبدوه؛ لاستحقاق ذاته وعظمته لذلك، وحياً وحكمة كما جاء في قصة لقمان عليه السلام. في هذا المقلب الثالث وحدوه واعبدوه؛ لكونه منعماً، فالعبادة يستحقها الباري سبحانه وتعالى، وتوحيده يستحقه سبحانه وتعالى لذاته لعظمته لعظمة أفعاله لجلاله وكماله، وأيضاً عبادته وتوحيده يستحقها؛ لكونه منعماً.

فإذن كما نلاحظ أن تمام هذا السياق يتحدث موضوع واحد، عندما شرعت سورة لقمان بالمقارنة بين فئتين من الناس، فئة المحسنين وفئة من يشري لهو الحديث، وبينت أن العنصر الأساس في التفاضل بين هاتين الفرقتين هي المبدأ والمعاد.

فكان تمام هذه الآيات كلها في سياق إثبات عقيدة التوحيد وعقيدة الإيمان بالغيب واليوم الآخر التي كان بها التفاضل بين تلك الفرقتين، لكن بينتها الآيات المباركة تارة على لسان نبي يوحى إليه وأخرى على لسان حكيم، فإن عقيدة التوحيد من مقتضيات الحكمة، من مقتضيات العقل، من مقتضيات الفطرة.

كذلك في إثبات عقيدة التوحيد تنوعت الآيات، تارة التوحيد حق لعظمته وجلاله وعظم شأنه، وهو الذي خلق السماوات بدون عمد ترونها، وأخرى عقيدة التوحيد والتعبد بها؛ لكونه منعماً عليكم أيها الناس.

فإذن ما زلنا نقرأ مع تنوع الأساليب في صفحة واحدة ولغرض واحد. وفي الواقع بعد لم نخرج عن غرض واحد، لكن التفاوت في هذه الجولات الثلاث إنما هي كانت في الأسلوب والكيفية.

هذا ما يرتبط بهذا مطلب، وهو ربط هذه الجولة بالجولتين السابقتين.